رويّ الميم

نور تظاهر فيك لاهوتيه

قال وهو في المكتب يمدح رجلاً، وأراد أن يستكشفه عن مذهبه: [الكامل]

كُفِّي أَرَانِي وَيْكِ لَوْمَكِ أَلْوَمَا
هَمٌّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادٍ أَنْجَمَا[١]
وَخَيَالُ جِسْمٍ لَمْ يُخَلِّ لَهُ الْهَوَى
لَحْماً فَيُنْحِلَهُ السَّقَامُ وَلَا دَمَا[٢]
وَخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ
يَا جَنَّتِي لَظَنَنْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا[٣]
وَإِذَا سَحَابَةُ صَدِّ حِبٍّ أَبْرَقَتْ
تَرَكَتْ حَلَاوَةَ كُلِّ حُبٍّ عَلْقَمَا[٤]

---

(١) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ٢: ٧، الوساطة بين المتنبي وخصومه: ٨٩، ١٥٥. كفّي: دعي واتركي. أنجم: أقلع، يقال: أنجمت السماء، إذا أقلعت عن المطر. «ومن عاب من ابتدائه مثل قوله: كفّي أراني وَيْك لومك أَلْوَمَا». أراني: عرّفني وأعلمني. ويك أصلها ويلك، حذفت اللام لكثرة الاستعمال. يُخاطب الشاعر العاذلة طالباً منها أن تكُفّ عن لومها له، والسبب أن الهمّ نزل بساحته لفراق الحبيب، ولومها إيّاه أحقّ بأن يُلام من قبله.

(٢) يُنحله: يهزله. السقام: الأمراض. عطف الشاعر الخيال على الهمّ، والخيال لا حقيقة له تُلمس، فالحبّ لم يُبقِ في جسمه شيئاً ذا بال من لحم ودم.

(٣) الخفوق: اضطراب القلب وشدّة خفقانه. لا زال الشاعر يُخاطب حبيبته كاشفاً عمَّا يُعانيه من شدّة حبّه لها، فهي جنّته التي يستظلّ بفيئها وحنانها.

(٤) الحِبّ: المحبوبة. أبرقت: أبدت صدوداً. العلقم: ضرب من الشجر مرّ المذاق يعلّل الشاعر سبب تحوّل حلاوة الحبّ إلى عذاب مرّ المذاق.

يَـــا وَجْـــهَ دَاهِـــيَـــةَ الَّـــذي لَـــوْلَاكَ مَـــا
أَكَـلَ الـضَّـنـى جَسَـدي وَرَضَّ الأَعْـظُـمَـا[١]
إِنْ كَـــانَ أَغْـــنَـــاهَـــا الـــسُّـــلُـــوُّ فَـــإِنَّـــنِـــي
أَمْـسَـيْـتُ مِـنْ كَـبِـدي وَمِـنْـهَـا مُـعْـدِمَـا[٢]
غُـــصْـــنٌ عَـــلَـــى نَـــقَـــوَيْ فَـــلَاةٍ نَـــابِـــتٌ
شَـمْـسُ الـنَّـهَـارِ تُـقِـلُّ لَـيْـلاً مُـظْـلِـمَـا[٣]
لَـــمْ تُـــجْـــمَـــعِ الأَضْـــدَادُ فِـــي مُـــتَـــشَـــابِـــهٍ
إِلَّا لِـتَـجْـعَـلَـنِـي لِـغُـرْمِـي مَـغْـنَـمَـا[٤]
كَـصِـفَـاتِ أَوْحَـدِنَـا أَبِـي الْـفَـضْـلِ الَّـتِـي
بَـهَـرَتْ فَـأَنْـطَـقَ وَاصِـفِـيـهِ وَأَفْـحَـمَـا[٥]
يُـعْـطِـيـكَ مُـبْـتَـدِراً فَـإِنْ أَعْـجَـلْـتَـهُ
أَعْـطَـاكَ مُـعْـتَـذِراً كَـمَـنْ قَـدْ أَجْـرَمَـا[٦]

(١) الرّض: التحطيم والدقّ. الضنى: المرض. يُخاطب الشاعر حبيبته إنها داهية نزلت بساحته فحطّمت عظامه لذا بدا خيالاً لا روح فيه.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٦٨، أمالي ابن الشجري ٢: ٧. السلو: النسيان. روى ابن جني «مصرما» بدلاً من «معدما». المصرم والمعدم بنفس المعنى: المقطوع لشدّة فقره. يُعلّل الشاعر سوء حاله التي نزلت بساحته أن حبيبته قد نسيت حبّها له وتخلّت عن وصله فبات محترق الكبد.

(٣) نقوي، مثنى نقا: الكثيب من الرمال. الفلاة: الصحراء. تُقِلّ: تحمل. يصف الشاعر حبيبته بأنها غصن لدن استطال وامتشق يحمله ردفان ثقيلان، ووجهها مشرق إشراقة شمس الفجر الضاحك، يُزيّن رأسها شعر فاحم كظلمة الليل الدامس.

(٤) الغرم: العشق. المغنم: الغنيمة. يتغزل الشاعر بحبيبته، فقد استحوذت على صفات متضادّة تناسقت في جسم بديع، ممّا جعله سهل المغنم فعشقها.

(٥) بهر: أدهش. أفحم: أخرس. تخلّص الشاعر من الغزل إلى المدح، فممدوحه يجمع الأضداد، شأنه في ذلك شأن حبيبته؛ إنه مرّ علقم على أعدائه، حلو طيّب الشمائل على أحبّائه وصحبه، كريم ممّا جعله أوحد عصره؛ أعان ذلك مادحيه على وصفه بتلك الصفات.

(٦) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣٠٥. ومن دلائل كرم ممدوحه الإسراع =

وَيَـرَى الـتَّـعَـظُّـمَ أَنْ يُـرَى مُـتَـوَاضِـعـاً
وَيَـرَى الـتَّـوَاضُـعَ أَنْ يُـرَى مُـتَـعَـظِّـمـاً[١]
نـصَـرَ الْـفَـعَـالَ عَـلَـى الـمِـطَـالِ كَـأَنَّـمَـا
خَـالَ الـسُّـؤَالَ عَـلَـى الـنَّـوَالِ مُـحَـرَّمَـا[٢]
يَـا أَيُّـهَـا الـمَـلَـكُ الـمُـصَـفَّـى جَـوْهَـراً
مِـنْ ذَاتِ ذِي الـمَـلَـكُـوتِ أَسْـمَـى مَـنْ سَـمَـا[٣]
نُـورٌ تَـظَـاهَـرَ فِـيـكَ لاهُـوتِـيُّـهُ،
فَـتَـكَـادُ تَـعْـلَـمُ عِـلْـمَ مَـا لَـنْ يُـعْـلَـمَـا[٤]
وَيَـهِـمُّ فِـيـكَ إذا نَـطَـقْـتَ فَـصَـاحَـةً
مِـنْ كُـلِّ عُـضْـوٍ مِـنْـكَ أَنْ يَـتَـكَـلَّـمَـا[٥]
أَنَـا مُـبْـصِـرٌ وَأَظُـنُّ أنـي نَـائِـمٌ
مَـنْ كَـانَ يَـحْـلُـمُ بـالإلٰـهِ فـأَحْـلُـمَـا[٦]

= في العطاء، وقد يُسبق بالسؤال، فيُعطي ويعتذر كأنه اقترف ذنباً يستوجب ذلك، دلالة على أنه غاية في الكرم.

(١) ومن صفات الممدوح شدّة تواضعه، ففهمه للعظمة الظهور بتواضعه فيكسب قلوب الناس عامة ومحبيه خاصة، ولكنه يتعاظم أمام أعدائه.

(٢) المطال: التسويف والإخلاف بالوعد. والممدوح لا يُماطل ولا يسوّف، بل إنه فعّال سريع العطاء حتى إنه يظنّ الإلحاح في السؤال حراماً.

(٣) و (٤) الجوهر: الأصل. ذي الملكوت: اللّه عزّ وجلّ. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه ملك ينتمي إلى أصل رفيع المحتد، وقد باركه اللّه تعالى أعلى من سما من البشر. فإذا بالنور الإلهي يحلّ بحمد وجه فإذا به يطّلع على الغيب وتنكشف له الحجب.

(٥) و (٦) من نعم اللّه على الممدوح أن يكشف كلّ عضو لديه عمَّا حلّ به من النور الإلهي ويُفصح عن سرّ عظمته. ولذا فالشاعر لم يتصوّر أنه يُواجه حقيقة بل إنه يظنّ أنه يحلم لأن نظره لم يقع على موجود بين البشر يُماثل، شأنه في ذلك لمن يريه خالق الوجود لاستمالة رؤياه في عالم الحضور الدنيوي.

كَـــبُـــرَ الْـــعِـــيَـــانُ عَـــلَـــيَّ إِنَّـــهُ
صَـارَ الْـيَـقِـيـنُ مِـنَ الْـعِـيَـانِ تَـوَهُّـمَـا[١]
يَـا مَـنْ لِـجُـودِ يَـدَيْـهِ فـي أَمْـوَالِـهِ
نِـقَـمٌ تَـعُـودُ عَـلَـى الْـيَـتَـامَـى أَنْـعُـمَـا[٢]
حَـتَّـى يَـقُـولَ الـنَّـاسُ مَـا ذَا عَـاقِـلاً،
وَيَـقُـولَ بَـيْـتُ الـمَـالِ مَـا ذا مُـسْـلِـمَـا[٣]
إِذْكَـارُ مِـثْـلِـكَ تَـرْكُ إِذْكَـارِي لَـهُ
إِذْ لَا تُـرِيـدُ لِـمَـا أُرِيـدُ مُـتَـرْجِـمَـا[٤]

الموت في الحرب عسل في الفم

وقال في صباه:

[الطويل]

إِلَـى أَيِّ حِـيـنٍ أَنْـتَ فـي زِيِّ مُـحْـرِمِ
وَحَـتَّـى مَـتَـى فـي شِـقْـوَةٍ وَإِلَـى كَـمِ[٥]
وَإِلَّا تَـمُـتْ تَـحْـتَ الـسُّـيُـوفِ مُـكَـرَّمـاً
تَـمُـتْ وَتُـقَـاسِـي الـذُّلَّ غَـيْـرَ مُـكَـرَّمِ[٦]

---

(١) يُردف الشاعر قوله بأن المفاجأة الكبرى أن يرى إنساناً ما توفّرت فيه السّمات الرفيعة، فإذا بما يلمسه ويراه يبدو لعينيه توهّماً، وكأنه في حالة نحو شيء لا وجود له.

(٢) و (٣) يُخاطب الشاعر ممدوحه، فكرمه يعمّ اليتامى بنعمه، وكأنه ينتقم من ماله بإنفاقه في سبيل مساعدة هؤلاء؛ ممّا يحمل الناس على الاستغراب والدهشة، فينعتون عمله بالجنون؛ فالمال مال سائر المسلمين، وقد بعثره في وجه واحد.

(٤) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ٣١٢. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن تذكيره بما جاء لأجله، ذلك أن الممدوح يعلم حال الشاعر وغاية مجيئه إليه، فلن يتطرّق إلى تذكيره بذلك.

(٥) و (٦) المحرم: من لبس لباس الإحرام، وهو لباس غير مخيط. الشقوة: سوء الحال وشدّة الفقر. يستنهض الشاعر نفسه طلباً للغنى والقوّة، فالموت لا بدّ منه، وثمّة فرق بين موت فيه عِزّة تحت السيوف، وموت على فراش الموت فيه ذلّ واستكانة.